

كتاب 5

هافانا



أسامة الشريف

هافانا

رواية



تقديم :  
باسم سكجها

الناس يشيخون، والمدن تشيخ، والثورات أيضاً! ويحضر الزمن بأظافره الحادة، ولكن ببطء، تحولاته على الوجوه والأرواح والأماكن والعلاقات، وفي لحظة الإكتشاف، تكون الأشياء قد وصلت إلى نقطة اللاعودة. وكلّ التحولات تبدأ بالوعد الكبير، وهذا ما يفعله الأفراد، وهذا ما تفعله الأماكن، وما يقوم به البشر من تمرد على الواقع، ولكن على الدورة الحياتية أن تدور، فلا تستقر على نقطة سوى لقليل من الوقت، لتعود إلى الدوران والدوران. وكأنّ الحياة لعبة "روليت"، تلك التي اشتهرت بها هافانا قبل الثورة، باعتبارها مدينة القمار الأميركية، تدور الكرة وتدور الحلقة، لتستقر على رقم، منهيّة فصلاً قصيراً، من لعبة طويلة.

لعلّ أسامه الشريف اختار هافانا لهذا السبب، مكاناً لروايته، ولعلّ القارئ يستطيع أن يُغيّر في إسم المدينة وأسماء الناس، ليعرف أنّه في العالم العربي أيضاً!



# 1

ينسكب لون أحمر على صفحة السماء  
ناحية الغرب، بينما يختفي قرص الشمس  
وراء كتلة من الغيوم الرصاصية. يجلس  
بيدرو في مؤخرة شاحنة مع غيره من الثّوار.



بينما يطفئ ضجيج المحرّك المنهك على كلّ الأصوات. تتحرّك الشّاحنة  
ببطء على طريق ترابيّ رطب وسط غابة كثيفة من أشجار الأناناس. الثّوار  
منهكون بعد رحلة بدأت في الفجر. يحتضن معظمهم رشاشه ويستغرق  
في نوم عميق. لكنّ بيدرو لا يستطيع إغماض عينيه. إنّهُ ينظر إلى السماء  
ويلوك قطعة من قصب السّكر. تذهب أفكاره به بعيدا. يفكّر في أبيه  
الضّرب وأمه المريضة وأخته ماريا. لم يرهّم منذ أن انضمّ إلى الثّورة قبل  
عامين. كان قد احتفل بميلاده السّابع عشر حينها. ترك القرية القابعة بين  
الجبل والسهل بعيدا عن البحر ورحل.



يئن محرّك الشّاحنة وتتمايل أجساد الرّفاق ويستفيق بعضهم ينظر من حوله قبل أن يعود إلى غفوته. بيدرو لا ينام. يده على الرّناد. ينظر إلى السّماء بحثاً عن إشارة ما. تختفي الألوان وتحلّ العتمة. هناك ريح خفيفة تهبّ من جهة الشّمال. يعدّل بيدرو قبعته ويسند ظهره إلى جسم المركبة ويبحث في جيبه عن علبة سجائره. المسافة كبيرة بين الخيم القديم والموقع المتقدّم الذي أمروا بالتوجّه إليه. هافانا لا تزال بعيدة المنال. بيدرو لا يزال أسير جبال السّيرا مايسترا. الطّريق طويلة إلى هافانا. ربّما لن يصلوها أبداً!

لكن أحياناً يتسجيب القدر لدعوات الأشقياء!

\*\*\*\*

يجلس بيدرو على عتبة بيته في هافانا القديمة. ليس بعيداً عن مبنى الكابيتول. ويدخن. ستون عاماً مرّت منذ أن اقتحم الثّوار هافانا في يناير 1959. لن ينسى ذلك اليوم أبداً. ها هو الآن قد شارف الثّمانين من عمره. يلبس نظّارة طبّيّة سميكة ويجلس أمام بيته في شارع سان خوان دي ديوس طيلة الوقت. البيت كان فيلاً عامرة يوماً ما مدهونة جدرانها باللّون الأزرق. الجدران لا لون لها الآن والفيلاً تعيش فيها سبع عائلات. حصّته منها غرفتان وحمّام. شعاع الشّمس يتسلّل عبر السّاحة الدّاخلية حيث كانت هناك حديقة وجلسة لتناول الشّاي. الآن لا حديقة ولا شيء سوى خردوات تراكمت فوق بعضها البعض. رائحة الماء الآسن في الشّارع الضيّق تزكم الأنوف. لكنّ بيدرو لا يهتمّ. يجلس على عتبة المدخل بثيابه الدّاخلية ينظر إلى صبية يلعبون بكرة في الرّفاق. يعيش مع زوجته أليخاندرابنته بينولوبي.

عشرون عاماً مضت منذ أن أُحيل إلى التّقاعد في سنّ السّتين. يقولون

إنّ الكوبيين يعمّرون طويلاً. عمل لأربعة عقود في وزارة الزراعة كمفتّش. جال في كلّ أنحاء كوبا خلالها. زار قرى نائية منسيّة ومدناً نائمة بعد أن كانت تعجّ بالحياة. كانت هناك مزارع قصب سكر نموذجيّة ساهم في بنائها. ثمّ انتظر حتّى جار الزّمن عليها وماتت. مزارع موز وأناناس وبطاطا وأرز لم يكتب لمعظمها النّجاح. النّاس يعيشون في فقر. كلّهم سواسية. أبناء المدن لا يختلفون عن سكان القرى. لكنّ السّوق السّوداء رائجة في المدن. الدّولة تدير مزارع التّبغ ومصانع السّيجار. والصّينيون جاؤوا بعد السّوفيات لينقّبوا مناجم النيكل. وهكذا رأى بيدرو بأنّ عينه دورة اقتصادية كاملة تنهاوى.

اليوم. تعيش هافانا على ما يأتي إليها من السّيّاح. هناك آلاف منهم في كلّ مكان وفي كلّ موسم. هافانا اليوم مدينة تحاول أن تقتات على تركة الماضي. ما يثير السّخرية أنّها تعيش على إرث إمبرياليّ. تناقض واضح بين واقع اليوم وأحلام ثورتها في الخمسينيات. السّيّاح لا يعبأون بما أجزته الثّورة من تعليم وصحّة وعدالة اجتماعيّة. إنهم يبحثون عن المطاعم والحانات والمباني الأثريّة القديمة وعن مكان يرقصون فيه حتّى الصّباح على وقع أنغام الرّومبا.

عاش بيدرو ذلك كلّهُ. لم يكن ثائراً حقيقيّاً. كلّ ما كان يبحث عنه هو الهروب من قريته إلى هافانا. كانت هافانا حلماً لفتى قرويّ مثله. كان القطار يمرّ مرّة في اليوم عبر القرية إلى هافانا. كم حلم بأن يركب ذلك القطار إلى العاصمة. هناك تتحقّق الأحلام. كان يقول لنفسه.

ثمّ جاءت الثّورة. وعدت بالكثير لكنّ بيدرو وجد فيها تذكرة خروج من

القرية. لم يكن متمرداً في الحقيقة ولم يكن يفقه شيئاً في السياسة. شابّ مراهق ضجر أراد الهروب من واقع محتوم. كان أبوه مزارعاً صغير الشئان. وكلّ ما ينتظر بيدرو هو أن يحلّ مكانه. كان يعشق حصّة الجغرافيا في المدرسة ويتذكّر دائماً أنّ العالم كبير وشاسع. هناك مدن تنتظره، إذا ما استطاع عبور البحر.

اليانكي الأميركيّ كان يحكم كوبا. كلّ شيء كان في قبضة الأميركيّان. فهم ذلك من حديث الكبار في الأمسيات الطويلة المملّة في القرية. وكان باتيستا رجل أميركا في كوبا. ديكتاتور بغيض وجب القضاء عليه. كان الرّجال يتحدّثون عن الثّورة وعن قائد ثوريّ اسمه فيديل كاسترو. كبر بيدرو وهو يفكر بكاسترو وثورته. الثّورة اندلعت في مدن كثيرة كان بيدرو قد سمع بها: سانتياغو دي كوبا وسانتا كلارا ومورون وغيرها.

انضمّ بيدرو إلى حركة 26 يوليو في أكتوبر من عام 1957. كان عمره آنذاك لا يتجاوز السّابعة عشر. بعد هجوم كاسترو الفاشل على ثكنات مونكادا والحكم عليه بالسّجن بدأ الحديث عن الثّورة ينتشر في كوبا. وبعد أن هرب كاسترو وغيره إلى منفى المكسيك نسي الناس الثّورة، لكنّ كاسترو ورفاقه. أخوه راؤول والطّبيب الأرجنتينيّ غيفارا، عادوا إلى كوبا مرّة أخرى ليشعلوا نارها.

بعد أن تاهوا أسابيع في جبال سييرا مايسترا، عاد كاسترو والرّفاق لينظّموا أنفسهم. سمع الكوبيّون لأوّل مرّة عن بطولات سيليا سانشيز وهايدي سانتاماريا، امرأتان ساندتا الثّورة الصّغيرة في الجبال. ثمّ سمع



الجميع بانتفاضة الطّلاب في هافانا والهجوم على القصر الرّئاسيّ الذي انتهى بالفشل. كان ذلك في عام 1957، في العام الذي انضمّ فيه بيدرو إلى الثّورة.

بعد انتصار كاسترو في معركة لا بلاتا، وجد بيدرو نفسه على متن حافلة متّجهة إلى جنوب الجزيرة ليس بعيدا عن جبال السّييرا مايسترا. هناك وعلى أطراف الجبال انتظر بيدرو الالتحاق بقوّات كاسترو. لكنّ ذلك لم يحدث لأسابيع. اضطرّ بيدرو للعمل في الحقول المجاورة مقابل وجبة طعام. ثمّ خرج كاسترو من الجبال يوما ما وقاد هجوما معاكسا ضدّ جيش باتيستا.

هناك انضمّ بيدرو إلى الثّوار. وبعد أيّام وجد نفسه ضمن مجموعة يقودها تشي غيفارا متّجهة إلى سانتا كلارا. لم يكن لبيدرو أيّ خبرة عسكريّة. قال له الثّوار إنّ من الأفضل له أن يبقى مع قوّة صغيرة للإسناد. سمع بمواجهات في الجبال والسّهول وبانتصار ساحق للثّوار في "ياجواجاي" وبسقوط سانتا كلارا في 31 ديسمبر من عام 1958. بعد يومين دخل بيدرو سانتا كلارا وشاهد لأوّل مرّة مدينة كبرى بساحات وحوانيت وقصور. الطّريق لهافانا كان مفتوحا بعد ذلك. وكان قدر بيدرو أن يدخلها مع الفاتحين!

## 2

سيزور بيدرو ألفونسو اليوم؛ رفيق من زمن الثّورة طاعن في السنّ أيضا. إنّه يدير حانة ليست بعيدة عن هنا. لكنّه لا يعاني من أوجاع في عظامه. إنّه يتحرّك بخفّة ورشاقة رغم كرشه الكبير. يشعر بيدرو بالتعب سريعا. لم يعد جسده يطيق الجلوس لفترة طويلة. ولكن ما بإمكانه أن يفعل.

في المساء ينهض بيدرو ويمشي ببطء عبر الرّزاق متوجّها إلى حانة "مونسيراتي" التي يديرها صديقه ألفونسو وتبعد نحو ثلاثمائة متر عن منزله. هناك يجلس بيدرو ليحتسي الرّوم ويدخن لساعتين قبل أن يرجع إلى البيت. درج على ذلك لأكثر من أربعين عاما.

في الحانة هناك رجال طاعنون في السنّ أيضا. ربّما كانوا رفاق درب في الماضي. الوجوه شاحبة والأعين زائغة. هناك من يلعب الدّومينو بصمت. مروحة كهربائية معلّقة في السّقف تدور ببطء. يتوقّف بعض السّوّاح ليلقوا نظرة ثمّ يستمرّون في المشي. إنّها ليست حانة للسّيّاح. موسيقى تنبعث من راديو قديم ملقى إلى جانب مرآة كبيرة. ينظر بيدرو إلى صورته في المرآة المعلقة في البهو. سحنة سمراء وشعر أبيض وعينان بنّيتان وجسم نحيل: ما هكذا كنت. يقول لنفسه. ثمّ يهمس لنفسه: آه تيريزا!

التّوأمان راؤول كانا يقطنان الشّقّة المقابلة لشقّة بيدرو مع زوجتيهما وأولادهما. تسعة أشخاص في غرفتين ومطبخ وحمّام واحد. كان خورخي الأخ الأكبر. ببضع دقائق كما كان يحلو له أن يقول، يعيش مع زوجته وابنه وابنتيه. أمّا الأخ الأصغر خوان فكان يعيش مع زوجته وولدين. كان الأخوان راؤول يديران كراجا للسيّارات على أطراف هافانا القديمة. لم يكن بيدرو يعرف الكثير عن الأخويين راؤول. الأوّل كان صاخبا ويتحدّث كثيرا. لكنّ خوان كان الأقرب إليه. درس العلوم السّياسيّة في جامعة هافانا لعاميين قبل أن يشترك مع أخيه في إدارة الكراج.

عندما كان بيدرو يلتقي الأخويين راؤول في الصّباح وهما في طريقهما إلى العمل، كان خورخي يبادره في التّحيّة. أمّا خوان فكان الأكثر إلحاحا في الحديث عن أحوال البلاد وعن الثّورة.

"رفيق بيدرو. الثّائر الذي دخل هافانا مع الكوميندانتي!"

"صباح الخير يا خوان"

"الشّيوعي المثابر. صاحب المبادئ"

"أنت تهزأ بي الآن يا خوان"

"لا رفيق بيدرو أبدا. لكنّي أتساءل أحيانا"

"عن ماذا؟"

"عن ستين عاما من الكفاح. ههه أنت تعرف ما أقصد"

"أنت خرّيج جامعة يا خوان. أجبني أنت!"

"صحيح. درست لينين وقرأت بعضا من ماركس. لكنّي لا أرى شيئا من

حولي قد تحقّق من حلم البروليتاريا المثالي"

"إذن أنت تعرف الجواب يا خوان"

"الجواب أنّنا بددنا سنوات من عمرنا لنطاردهما مستحيلا"

"بددنا؟ نعم كلمة جميلة. ربّما كنت على حقّ يا رفيق خوان"

كان خوان في الأربعين من عمره ربّما. طويل حنطيّ اللّون ويرتدي أفرهولا

بنّيّا دائما. لا يختلف كثيرا عن أخيه خورخي إلّا من حيث الحجم. كان

خورخي ضخم الجثّة، شرها، كثير الكلام وطيب المعشر.

"يكفي حديثا عن الثّورة يا خوان" يقول خورخي. "علينا أن نتحرّك يا

أخي"

"اذهب! لن يتغيّر العالم هذا اليوم. أمّا بالنّسبة إلى لينين وماركس فأنا

لم أقرأ شيئا طيلة حياتي. هناك تفسير كوبيّ لكلّ شيء!"

"بيدرو أيّها الرّفيق. ليتني أغوص في أعماقك أيّها الجار العزيز" يقول

خوان.

"استمع إلى خورخي واذهب إلى عملك. حكمة اليوم أنت قلتها: لقد

بددنا عمرنا وحسب. ليس لديّ شيء أضيفه!"

فيدل جاء. لقد جاء الفرج! يأخذه من يده يحاول أن يدفع به إلى زقاق. لكنّ بيدرو يقاوم. يترك الرجل الثمل ويكمل طريقه.

هناك حانة في الزاوية. إنها ممتلئة على آخرها مكتظة. رجال ونساء يرقصون وفرقة تعزف الموسيقى وهناك ضجة وفوضى. يدخل بيدرو ويجلس. يلتئم الناس حوله. يرتنون على ظهره ويصّبون له الرّوم. يجلس قليلا. يقترب منه رجل أسود البشرة ويقدم له سيجارا.

"كنا ننتظركم! تفضّل! الحرّية أخيرا!"

هذه المرّة الأولى التي يرى فيها بيدرو هافانا. طالما سمع عنها وعن جمالها. ضوضاء في الخارج. سيّارات فارهة تحاول الخروج من الأزقة. بعضها محمّل بأثاث وملابس ومتاع. نساء جميلات ينظرن ببلاهة إلى ما يحدث. صوت إطلاق رصاص بعيدا. لكن الحانة مملّاة بالراقصين. نساء ورجال يرقصون بجنون. والموسيقى لا تتوقّف. يشرب الرّوم ويخرج سيجارة من جيبه. يقترب منه رجل يلبس بدلة بيضاء ويعتمر طاقية بانما. لعله أميركي.

"أنا يانكي لكنني معكم. مع الثورة. فلستقط الإمبريالية! فليسقط باتيستا الحقير!"

ثمّ يقدم له سيجارا. في حوزته سيجاران الآن. لكنّه يشعل سيجارة

ليلة دخول الثوّار إلى هافانا: هرج ومرج وفوضى في كلّ مكان. يقولون إنّ باتيستا قد هرب منذ أسابيع. ترك بيدرو رفاقه ورجال في أزقة هافانا القديمة. أناس يرتدون ملابس فارهة يغادرون على وجه السرعة. تظاهرات صغيرة الحجم من الفقراء تردّد: ثورة... ثورة... ليسقط باتيستا وليعيش فيدل!

الشّريطة تحاول عبثا السّيطرة على الأمن. هناك سلب لمحالّ تجاريّة فاخرة. بيدرو لا يعبأ بذلك كلّه. إنّهُ ينظر إلى الفيلاّات الفخمة والعمارات المزدانة بتمائيل لملائكة وحيوانات ونباتات منحوتة في الحجر. يمشي بسرعة عبر الأزقة إلى وسط ساحات واسعة كان يسمع بها في صغره. بلازا دي أرماس. قلب هافانا القديم. مرّ عبر الحديقة الكبرى. بارك سيسبيدس، ومنها وبعد أن ضاع عبر الأزقة وجد نفسه فجأة في ساحة الكاتدرائيّة. كان هناك عجوز أسود يمرّ أصابعه على أوتار غيتار منهك ويردد كلمات أغنية إسبانيّة حزينة. أخيرا وبعد ساعة من التّجوال وصل إلى ساحة بلازا دي سان فرانسيسكو. في مواجهة الخليج والميناء. هناك جلس بيدرو ليُدخّن سيجارة وينظر إلى الفوضى البشريّة من حوله. أناس تركض في كلّ الاتجاهات وأبواق السيّارات الأميركيّة الفارهة يملأ الفضاء.

يهجم رجل أسمر غليظ الملامح في منتصف العمر نحوه ويحتضنه:



وينظر إلى النساء. بعضهنّ جميلات. زجّيات ومولاتو وبيضاوات. من كان يتوقّع أن يحتفلن بسقوط هافانا وجّاح الثّورة. أزيز رصاص يأتي من بعيد. لكنّ الحفلة مستمرّة.

أسدل اللّيل ستاره على هافانا القديمة. شعر بيدرو بجنون تلك اللّيلة. بعيدا عن تلك الحانة كان النّاس يحتفلون بدخول كاسترو المدينة. هل كان هو جزءاً من التّاريخ الذي كان يكتب في تلك اللّيلة؟ في جيبه بضعة بيزوات وسيجاران وعلبة تبغ. كان ذلك كلّ ما يملكه. إضافة إلى بزّته ورشّاشه الذي احتضنه بفخذه وهو يحتسي الرّوم.

رغم كلّ شيء كان بيدرو يشعر بالوحدة. قال لنفسه: كلّ هؤلاء النّاس وحيدين مثلي. نحن أبناء الثّورة الآن. والثّورة هي أمّنا وأبونا. مزيد من أزيز الرّصاص. ليس بعيدا عن الحانة وقريباً من بلازا دي سان فرانسيسكو كان هناك عراق وصوت رصاص. هناك من يحاول السّطو على مبنى البورصة.

فجأة جلست فتاة سوداء إلى طاولته. نظر إلى عينيها السّوداويين وإلى شعرها البنيّ الأجدد. كانت جميلة، ترتدي ثوبا أحمر ضيقاً وصدورها البارز يكاد يقفز منه. لم تنظر إليه وإنّما صاحت بصوت عال: فلتحيا الثّورة. ثمّ رمقته بنظرة وطلبت منه أن يبتاع لها مشروباً. لم يدر بيدرو ما يفعل. نظر من حوله وجّاهلها.

هناك في الزّاوية، على طرف البار، جلست امرأة أثارت انتباهه. كانت ترتدي تنورة زرقاء زاهية مزركشة. شعرها الأحمر يثيره. تستدير وتنظر إليه. تدخّن سيجارا طويلاً وتمسك بكأس من الرّوم. لا يمكنه تبيان لون عينيها. لعلّه بنيّ أو أسود.

يقوم ويمشي جّاهها. تنظر إليه باستخفاف. يتوقّف ثمّ يتقدّم نحوها.

"بيدرو يا أنستي!"

تضحك وتنظر إلى ناحية البار. تنفث دخان سيجارها ثمّ تستدير نحوه.

"تيريزا... يا سيّدي!"

"جميل. أعني اسم جميل. أنا بيدرو. من الثّوار..."

تضحك بصوت عال. يستثيره هذا.

يجلس إلى جانبها ويطلب كأساً من الرّوم. ينظر إليها متملياً. كم هي جميلة. هناك ألق في عينيها.

"إذن هذه هي الثّورة؟"

"ربّما هي أكثر من ذلك يا أنستي."

"أشكّ في ذلك سيّد بيدرو"

وهكذا انتهى الحديث عن الثّورة في دقائق. كم تعني له الثّورة؟ سأل نفسه بيدرو مراراً. بعد أكثر من سنة من التّيّه وسط الأدغال ها هو في وسط هافانا ببزّته العسكريّة يجلس في حانة ملأى بالمجانين وبتيريزا.

في تلك اللّيلة تركته تيريزا يفعل ما يشاء بها. اشتهاها مرّات في تلك اللّيلة. كان العالم قد جنّ في الخارج. ضوضاء وأزيز رصاص ورقص

وموسيقى وزحام. الكل يريد الهرب من هافانا. إلا هو. رقد فوقها وغاص في روائحها. كانت كل ما يريد من هذا العالم. فلتذهب الثورة إلى الجحيم. ها قد بلغ هافانا أخيرا.

في الصباح أرتدى ملابسه وجلس ينظر إلى عريها. كانت غارقة في النوم. تيريزا الجميلة! كان من المفترض أن يبقى مع كتبته لكنه نسي كل شيء عن ليلة اجتياح هافانا. في الأسفل كانت الموسيقى تصدح. يحتاج إلى كوب من القهوة وإلى لقمة يأكلها. نادى بصوت خافت: تيريزا!

نزل إلى البهو. كان هناك ناس نائمون في الردهة وفرقة من شخصين تعزف موسيقى الرومبا. طلب قهوة وأشعل سيجارا. جلس ينظر إلى الشارع. سيارات تحاول الخروج وبشر يمشون حاملين بعض متاعهم. إذن سقطت هافانا. لا يشم رائحة البحر بعد. فكّر بعائلته بعيدا عن العاصمة. لا بد أن يتصل بهم. مضى وقت طويل. ماذا يفعل الآن؟

4

مرّة رافقته ابنته بينوليبى إلى كورنيش مالميسون الشهير. لم تكن المرّة الأولى التي يذهب هناك. لكنّها كانت الأخيرة. الكاربي كان نزقا، بلون الخبر. هائجا متمردا كريها. جلس للحظات ينظر إليه. في قريته لم يعرف البحر. كان يتوق إليه لكنه كان يتخيّله مختلفا. كان رذاذ البحر يصفع وجهه. وفي الأفق كانت قلعة هافانا والحارسة على خليجها الهادئ.

"أهذا ما فصلنا عن العالم؟" سأل بيدرو نفسه.

"إنّه غدار. كرية، هائج عكر بلون الخبر"

تمنى لو أنّ كوبا لم تكن جزيرة وأنّ بوسعه الرّحيل إلى أقاصي العالم: إلى سانت بيتر سبورغ مثلا. هذا هو المكان الوحيد الذي تخيّل من كثرة ما وصفه له الضابط الروسي ألكساندر.

لم يحبّ بيدرو البحر أبدا. ولد بين الجبل والسّهل ووجد نفسه أخيرا في هافانا. كانت هافانا تكره البحر أيضا. أدارت ظهرها له واحتمت بالمباني العتيقة. كان خليجها هادئا عكر اللون. لم يفكّر أبدا بالبحر. كان يفكّر بنساء هافانا وليلها. ثمّ جاءت تيريزا فلم يعد يفكّر بغيرها بعد ذلك.

كان ألفونسو رجلا كبير الحجم بكرش ورقبة عريضة. تراجع شعر رأسه ليكشف عن صلعة حمراء اللون. احتلّ أنفه مساحة كبيرة من وجهه. في صغره كان يبدو كأحد أحفاد الإسبان الذين جاؤوا إلى هنا منذ قرون. كان طويلا ووسيعا ذاعينين بنيتين وسحنة بيضاء. لكن رغم ثقله كان نشط الحركة يخفي أعوامه الثمانين ويبدو وكأنه أصغر من ذلك بعقود. جلس إلى جانب بيدرو في الحانة وأشعل سيجارة.

عاش ألفونسو حياته في المدينة. لم يعرف حياة القرية كبيدرو. رأى بأم عينه هافانا في صغره. كانت أمّ المدن وأجملها. كان أبوه سائق سيارة للأغنياء من الأميركيين. عاش في سانتا كلارا وهافانا أيام كان أثرياء الأميركيين يسيطرون على كل شيء. لم يكره الأميركيين إلا بعد الثورة. عندما فقد أبوه كل شيء حوّل ألفونسو الشاب إلى ناشط في الحزب الجديد والوحيد. درس في الجامعة اللغة الروسية ثم تخرّج وعيّنته الحكومة في وظيفة مدنيّة. لكنّه كان يقول إنّه حارب مع الثوّار. كان بيدرو يعلم أنّ ذلك لم يكن صحيحا. كان ألفونسو وسيما وساعده مظهره في اصطياح كثير من النساء. كان ذلك قبل أن يتزوّج. التقيا في هيلتون هافانا في الستينيات ومنذ ذلك الوقت ترافقا.

"أظفار الزّمن فعلت فعلها يا بيدرو. أليس كذلك؟"

لم يجب بيدرو لكنّه نظر إلى صديقه وابتسم.

"ماذا أكلت اليوم يا ألفونسو؟"

"ههه فول وأرز ككلّ يوم يا بيدرو. ماذا تظنّ؟"

"سَلقت لي زوجتي بيضة هذا الصّباح"

"ههه أنت محظوظ إذن. زوج ابنتي سيأتي من القرية هذا المساء"

وسيجلب معه دجاجة أو اثنتين. أنتظر ذلك بكثير من الصّبر"  
"لا حاجة لي إلى اللحم. أفضل حساء الخضروات."

ثمّ ساد صمت.

نظر الإثنين إلى الشّارع. مرّ سائح وزوجته. توقّف الرّجل ونظر إلى الحانة. همس شيئا إلى زوجته ثمّ حركا.

"أميركيّ ربّما" قال ألفونسو.

"ربّما"

"هل من أخبار من الرّفاق يا بيدرو؟"

"لا. لا شيء. كلّ شيء كما هو. الرّفاق أكلوا الخراء. ههههه"

كان النّهار قد انتصف. رشف بيدرو بعض الرّوم ونظر إلى صديقه.

"كانت مغامرة. حياتنا أقصد"

"ههه كانت مغامرة يا صديقي"

"تذكّر العمل في وزارة الزراعة؟؟"

"عشرون عاما يا صديقي"

"صحيح"

"ألفونسو هل تفكّر براؤول أبدا؟"

امتعض وجه ألفونسو:

"إنّه ليس ولدي. ليس بعد أن هرب إلى فلوريدا"

"لكنّه حاول أن يرأسلك. أليس كذلك؟"

"ألقيت برسائله في المرحاض. إنّه خائن. لا أودّ الحديث في هذا الموضوع"

"هل تلومه يا ألفونسو؟ هناك آلاف غيره ركبوا البحر وذهبوا إلى أميركا."

"كلّهم خونة للثورة. يعملون جواسيس الآن."

ثم بدأ يتحدّث عن أميركا الإمبرياليّة وحصارها واستهدافها لكاسترو.

لكنّ بيدرو كان يفكّر في شيء آخر. تيريزا وليال حميمة وثورة ابتعد عنها وابتعدت عنه.

كان يحبّ زوجته أليخاندررا، أمّ ابنته، لكنّ بيدرو كان يشعر بأنّه خدع في حياته. طفولة بائسة فقيرة، سنوات مع الثوّار لم يطلق فيها رصاصة واحدة، ثمّ تيريزا التي غيرت حياته. لا ينفكّ يشمّ عطرها كلّ صباح. تيريزا! ثمّ عمل متواصل في الأرياف في وزارة الزراعة. لم يحقّق شيئا لنفسه. ألف بيزو في الشّهر وشقّة حقيرة وسط العاصمة والآن هو عجوز يحتسي الرّوم كلّ يوم لينسى أو يتذكّر!

\*\*\*

كانت أليخاندررا امرأة جميلة في يوم ما. البعض يقول إنّها مولاتو لأنّ بشرتها كانت سمراء. لم يعبأ بيدرو كثيرا لذلك لأنّها أثارتته منذ اليوم الأوّل. في الموعد الأوّل جاء بيدرو غير عابىّ بغير تيريزا من النّساء. لكنّ أليخاندررا كانت هناك. أعجبه لونها وألق عينها السّوداويين. كانت تملك جسدا جميلا أيضا. لم تنه دراستها الجامعيّة لكنّها كانت تتحدّث الإسبانيّة وقليلًا من الإنجليزيّة. رقصا قليلا ثمّ شرب الرّوم وجلسا ينظران إلى السّماء.

"انظري إلى السّماء. إنّها تكاد تفصح عن كلّ شيء"

"إنّها ترى ما في قلبي يا بيدرو"

"وماذا يقول قلبك يا أليخاندررا؟"

"يقول أشياء جميلة يا بيدرو"

"أحبّ كلّ شيء تقوله عينك يا أليخاندررا"

"وأنا كذلك... بيدرو"

وجد بيدرو نفسه في عناق طويل مع أليخاندررا. أحبّ رائحتها. لم تكن تيريزا لكنّها كانت البديل الأفضل. ثمّ إنّ صدرها كان حنونا. وجد نفسه يرتمي في حضنها. أحسّ أنّه يحبّها. كانت أليخاندررا الوسيلة الوحيدة لبييدرو لكي ينسى تيريزا!

ملك ما لا لكنّه كان يملك حضورا. تيريزا وبيدرو كانا ثنائيا متميّزا.

عندما عاد من خليج الخنازير روى لها بطولات الشعب الكوبي. لم تكثر كثيرا. كانت بحاجة إلى كأس من الروم وإلى الخروج من غرفة النزل. بالنسبة إليه كانت معركة خليج الخنازير حدثا كبيرا. لقد هزمنا أميركا أم الإمبريالية. تيريزا أنصتت ثم طلبت منه أن يخرجها من هذا الجحر. خرجا ليلتها لكنّه لم يكن يفكر بأيّ شيء آخر. الثورة انتصرت على أميركا!

\*\*\*

قبل الظهيرة يصحو بيدرو ليجلس إلى طاولة المطبخ ينتظر أليخاندرنا لتعدّ له إفطاره. قليل من الخبز اليابس وبعض الشاي والحليب. وكلّما جلس بيدرو إلى طاولة المطبخ نظر إلى الحائط أمامه: صورة قديمة لفيدل كاسترو يخاطب فيها الشعب في ساحة الثورة. كان هناك أكثر من مرّة. كشابّ ثم ككهل ينتظر أن تتغيّر الأمور. لم يكن بيدرو منظرا ثوريا أبدا. كان شابا كوبيّا آمن بالثورة ضدّ الإمبريالية. خرج من الرّيف وترك أهله وانضمّ إلى الثّوار. ورغم أنّه لم يطلق رصاصة واحدة لكنّه آمن بهدف الثورة وهو دخول هافانا وإسقاط الطّاغية باتسيتا.

\*\*\*

هافانا: لم يكن بيدرو يتوقّع أن تكون هافانا جميلة بهذا الشكل. فيلاتّ وبنائات وفنادق فخمة وشوارع عريضة ومحالّ ومعارض. كانت أجمل مدن أميركا اللاتينية أو هكذا كانوا يقولون. كان شابا لم يبلغ العشرين بعد

إضافة إلى دخوله هافانا مع فيدل وباقي الثّوار. يفتخر بيدرو أنّه كان حاضرا ليلة هجوم الأميركيين على خليج الخنازير! حسنا لم يكن ضمن القوّات المقاتلة. لكنّه كان هناك. وبعدها شاهد بأمّ عينه عشرات الجثث ملقاة على الشّاطئ. كان ذلك عندما انضمّ إلى وحدة اللّاسلكي برتبة رقيب. كان لا يزال على علاقة بتيريزا آنذاك. كانت قد استقرّت في فندق إسبانيا وسط هافانا. تطّلب ذلك أن ينفق كلّ ما حصله عليها. كان يقضي الليل معها في الحانة يرقص ويحتسي الروم ويدخن السّجائر وبعض السّيجار ويحاول أن يرضيها.

لم تتأقلم تيريزا مع الوضع الجديد أبدا. اختفى اليانكي الأميركي من هافانا وتغيّرت الأوضاع. حلّ الفقر وأقفلت حانات كثيرة. احتلّ الفقراء فيلاتّ فاخرة في وسط المدينة. لم تتدخّل السّلطة الجديدة. كانت هناك تظاهرات وتجمّعات للاستماع إلى خطب طويلة. لكنّ كلّ شيء تغيّر. اختفت الملابس من واجهات المحالّ التي أغلق معظمها. أمّت الفنادق والبنوك والممتلكات الخاصة. كانت تيريزا حانقة على كلّ شيء. تذكرت الأيّام الخالية: حفلات تدعى إليها ورقص حتى ساعات النهار الأولى وهدايا ثمينة من زبائن ممتّنين. بيدرو لا يفهم في السياسة ولا يجادلها كثيرا. كان وسيما آنذاك. شابا أسمر بعيون بنيّة وشعر أسود يتدلّى تحت عنقه. لم

عندما دخلها مع كاسترو. هناك نسي بيدرو نفسه وراح يجول في شوارع هافانا. أثناء طفولته البائسة كانت هافانا حلما كبيرا صعب المنال. ربّما لذلك انضمّ إلى الثّورة؛ للوصول إلى هافانا.

فقد أبوه بصره وهو طفل. لكنّه صابر وتزوَّج وخلف بيدرو وماريا. حياة القرية كانت صعبة. كان أبوه مزارعا يعمل كلّ النهار لكن بعد أن فقد بصره ترك مهمّة حرث الأرض وزرعها لأخيه سباستيان. كان العمّ حنونا على بيدرو وأراد أن يعلمه فنون العزق والحرث. لكنّ بيدرو كان كسولا. كان يحلم بالذهاب إلى هافانا: مدينة النور والمال.

عندما ترك بيدرو قريته لم يخبر أحدا إلاّ ماريا، أخته.

"أنا راحل يا ماريا"

"كنت أشعر أنّك على وشك الرّحيل. ولكن إلى أين؟"

"إلى الثّورة يا ماريا"

"ومن بعد يا بيدرو؟"

"لا أعرف يا ماريا"

"وماذا أقول لأبيك وأمّك؟"

"قولي إنّني ذهبت إلى هافانا"

"وهل ستعود أبدا؟"

"لا أدري لكنني أختنق هنا يا ماريا"

"إذن اذهب!"

## 6

يجلس بيدرو في الحانة ويتذكّر وجه ماريا الجميل. لم يذهب إلى القرية إلاّ بعد عشرين عاما. رحل والده الضّير وأمّه لم تبرح سريرها منذ سنوات. ماريا داهمها الزّمن فهزمت قبل وقتها. آه من أظفار الزّمن اللّعينة. جلست ماريا إلى سرير أمّها ونظرت إلى الرّقيب ببزّته العسكريّة.

"هل حققت ما تصبو إليه يا بيدرو؟"

لم يعرف كيف يجيب. جلس ينظر إلى وجه أمّه وهي ترمقه بنظرة حنونة بلهاء. لم يكن إلى جانب أبيه الضّير وها هو يتخلّى عن أمّه. ترك أخته وامتطى سيّارة عسكريّة وخرج من القرية إلى الأبد.

في الطّريق توقّف ومشى قليلا ونظر إلى الجبل والسّهل حيث قريته. دخّن سيجارة ثمّ أمر السّائق بالاستمرار. كانت هذه آخر مرّة يزور فيها قريته.

\*\*\*

بيدرو الجميل! بيدرو العظيم. ملك الحانات وسيّد ساحات الرّقص! لأشهر كان بيدرو خليل تيريزا وصاحبها. في كلّ ليلة كانت هناك حفلة ورقص وسكر وروم وسجائر وربّما سيجار. لكنّ هافانا كانت تفقد شيئا من

عدّة مرّات. في النّهاية تزوّجا مع أنّ بيدرو ظلّ يتذكّر حبّه الأوّل تيريزا. تزوّجا في خضمّ أزمة الصّواريخ الرّوسيّة واحتمال اشتعال الحرب الكونيّة مع أميركا!

\*\*\*

في ذلك المساء جلس بيدرو أمام التّلفاز يستمع إلى خطاب فيديل السنويّ. كان ذلك في مساء استوائي ماطر من عام 2001. هناك عاصفة تلوح في الأفق ذكّرت بيدرو بأيّامه في غابات سييرا مايسترا. في الخارج كانت هناك فرقة تعزف الموسيقى وسط صياح وفوضى. أدرك بيدرو أنّ اللّيلة ستكون شقيّة في حانة ألفونسو. جلست بينيلوبي إلى جانبه تستمع إلى الخطاب. كان بيدرو مرهقا وقد سمع كلام كاسترو عشرات المرّات في السّابق. أمّا أليخاندرافكانت تطبخ لحما جاءت به شقيقة بيدرو ماريا من القرية قبل أيّام. وقف بيدرو وطلب من ابنته بينيلوبي أن تساعدّه في الخروج إلى الرّفاق.

كان هناك بعض السّيّاح يمشون بتناقل أمام منزل بيدرو. وقف الرّجل برهة ينظر إليهم.

"أميركيّون معظمهم!"

كانت الموسيقى تصدح من بعيد. ربّما من حانة ألفونسو.

"ساعديني. علي أن أذهب إلى الحانة"

مشّت بينولوبي إلى جانب أبيها بينما حتّ الخطى نحو الحانة. بعد دقائق وصل إليها. نظر إلى ابنته ثمّ دفع بنفسه نحو الحانة.

جمالها في كلّ ليلة. احتل الفقراء قصورها العامرة وحولوها إلى ملاجئ. انتقل بيدرو إلى فيلا في هافانا القديمة لكنّ آخرين اقتسموها معه. لم يكن يستطيع أن يخرجهم. الثّورة فرضت نظاما جديدا. لم يكن بيدرو يفقه في النّظام الجديد. لكنّه لم يقل شيئا. تيريزا لم تقبل بذلك. وبعد أشهر قالت لبيدرو إنّ عليه أن يتحرّك. رفضت تيريزا العيش في مكان مشترك وطلبت من بيدرو أن يؤمّن لها فيلا مستقلّة.

\*\*\*

لم يكن بيدرو من المنتفعين بالنّظام الجديد. كان رقيبا في الجيش ومفتّشا في وزارة الزراعة. فهمه للثّورة كان ناقصا. هكذا كان يقول. في الأزقة كانت الدّولة توفر كلّ شيء. عند بائع الخضر كانت هناك خيارات محدودة: بطاطا حلوة وبعض البقول وبصل أخضر. هذا كان الوضع في كلّ يوم. وفي المنزل كانت الوجبة الرّئيسيّة أرز وفول وفي بعض الأحيان بعض من لحم.

أفاق بيدرو ذات يوم ليجد أنّ تيريزا قد رحلت. تركته في غرفة حقيرة تطلّ على ساحة في فيلا كانت يوما ما ملكا لأسرة أرستقراطيّة. عبثا حاول بيدرو أن يجد تيريزا لكنّها اختفت.

\*\*\*

بعد سنة تزوّج بيدرو من أليخاندرافأخت زوجة ألفونسو، والتي التقاها في حفلة عائليّة خارج هافانا. كانت أليخاندرافجميلة الوجه، صغيرة السنّ، لكن بمؤخّرة كبيرة. رقص معها بيدرو ومع إلحاح ألفونسو خرج معها

”اذهبي إلى أمك وتعالى بعد ساعة!“

جلس إلى طاولة ونظر من حوله.

كان هناك مجموعة من السّوّاح يشربون ويتكلّمون بصوت عالٍ. إنّهم أميركيّون. قال بيدرو لنفسه. من الغريب أن يدلّفوا هذه الحانة. نظر إلى البار وأشار بيده. بعد فترة تقدّم منه شابّ أسمر وسأله عن شرابه.

”روم مع ثلج واطلب من ألفونسو أن يأتي هنا“

بعد ربع ساعة جاء ألفونسو يجرّ نفسه ومعه كأس من الرّوم.

”هاك يا صديقي! لم أعهدكأن تأتي في مثل هذا الوقت“

”قد ضجرت!“

”كاسترو على التّلفاز“

”قد ضجرت قلت لك“

”ههه هل تتذكّر أزمة الصّواريخ الرّوسية؟“

”كنت في الوزارة حينها“

”وأنا كنت في أحد المواقع“

”كنت لا شيء يا ألفونسو. لا تنكر ذلك“

”ههه كنت في موقع في الفرقة الثالثة. مخمورا كالعادة!“

”ألفونسو: أين كنّا آنذاك وأين نحن الآن؟“

”الحكومة تأخذ كلّ شيء من دخل الحانة وتعطيني راتبا. هذا هو الواقع!“

”ربّما كان الوضع أفضل عندما جاء الرّوس هنا؟ أليس كذلك؟“

”الرّوس؟ إنّهم لا يعبؤون بنا أو بثورتنا. كلّ ما كانوا يريدونه هو إغاطة

الأميركان. وهاهم اليوم أصبحوا عتاة الرّأسماليين. أكثر من أميركا

نفسها“

”لكن لم تكن صحبتهم سيئة. تعلّمنا شرب الفودكا معهم.“

يبتسم ألفونسو ويضيف:

”لا تفتح خزانة ذكرياتي يا بيدرو. رافقت بعضهم وقضينا ليال حمراء

في سانتا ماريا“

”إنّهم يحبّون الصّخب واللّهو. مثل الكوبيين تماما.“

عرف بيدرو ألفونسو في منتصف الستينيات أثناء زيارة لوفد روسي

لهافانا. هناك تقابلا في فندق ”هابانا ليبري“ أو ما كان يسمّى بهيلتون

هافانا قبل الثّورة. كان ألفونسو مرافقا لعقيد في الجيش السّوفياتي

وبيدرو كان برفقة الملازم ألكساندر. جلس الإثنين ينظران إلى ما حولهما.

كان الفندق يوما ما مركزا هامّا لإدارة الثّورة.

”أنا بيدرو يا رفيق“



”وأنا ألفونسو“  
وهكذا تعرّف الرّجلان على بعضهما البعض.

”تركتك وأنت بئس“

”صحيح. وماذا حلّ بها؟ أتعرف؟“

”صاحبت أميركي مجنون إلى أن أنفق كلّ ثروته!“

”أميركا. رغم كلّ شيء فإننا لم نتخلّص منها. صحيح يا رفيق؟“

”صحيح يا صديقي. دعني أطلب لك قليلا من الرّوم“

\*\*\*

هطل المطر على هافانا واكتسحت المياه الشوارع والأزقة. كانت هناك عاصفة استوائية لكنّ ذلك لم يمنع بيدرو من الجلوس بملابسه الداخليّة أمام منزله. دخّن سيجارة وهو ينظر إلى السّيّاح يقفزون فوق شلال من مياه المجاري. ثمّ أشار إلى سائح بالقدوم إليه.

”من أين أنت؟“

”من كاليفورنيا. ههه وأنت؟“

”أنا من هنا منذ ستّين عاما...“

”أبحث عن مكان لسماع موسيقى الرّومبا. هل يمكن أن تدلّني؟“

”الموسيقى هنا جميلة“

”وكذلك النّساء“

”من أين أنت؟“

”من سانت كريستوبال. وأنت؟“

”من سانتا كلارا لكنني عشت معظم حياتي في هافانا“

”زرتها إبان الثّورة“

”تركتها حينها“

”أنت في هافانا إذن؟“

”نعم“

”التقيك مرّة أخرى؟“

”من المؤكّد“

التقى الرّجلان مرّات عديدة بفضل السّوفيات. تصادقا وفي النّهاية عرف ألفونسو أخت زوجته على بيدرو. ومنذ ذلك الوقت والرّجلين أصدقاء.

\*\*\*

”هل تتذكّر تيريزا؟“

”تيريزا: جميلة الجميلات. أتذكّرها!“

”وماذا تذكر؟“

”هل تدرك أننا ثرنا قبل عقود ضدكم؟“

”أنا لا أحدث في السياسة أبدا أنا سائح هنا. أريد سيجارا ومكانا لقضاء وقت طيب“

7

هكذا إذن. سيجار ومكان طيب. أيها الثور لقد ثرنا ضد كل ما تمثّلون. أضعت عمري معتقدا أنّ الإمبراليّة ظلم كبير وأنّ خلاصنا يكمن في نظام يحقّق العدالة. أيها الثور ما الذي أتى بك إلى بلادنا؟ لكن أيها الثور ها أنا في نهاية عمري وأنا أحلم بشيء واحد: تيريزا! سحقا لكم!

كانت تيريزا ابنة صاحب حانة في وسط هافانا القديمة. نشأت في بيئة منفتحة على الغرباء من الأميركيين الذين كانوا يأتون إلى كوبا ليقضوا وقتا جميلا. كان ذلك قبل الثورة. لم تدرس في الجامعة، ودفعها أبوها للعمل معه في الحانة. كانت تيريزا شابة جميلة، بشعر أحمر وبشرة بيضاء ناصعة؛ لم تبدُ ككوبية أبدا. تسابق الرجال لصحبته وبعضهم أسرف في الإنفاق عليها. كانت تتحدّث الإنجليزية، وتعرف كيف تتعامل مع اليانكي.

مات أبوها قبل الثورة واضطرت تيريزا إلى العمل في الحانات كرفيقة للزوّار وخاصة الأميركيين. لم تقع في الحب أبدا. حتّى بيدرو الوسيم لم يكن حبّها الكبير. لكنّه كان يملك صفات رجوليّة جعلتها تتعلّق به. بعد فترة صارت تعتبره ريفيا جاهلا. لم يكن يتحدّث كالألميركيين. لكنّه كان عاشقا حميما، حماها وأسرته بعد الثورة من مستقبل مجهول. كان ضابطا في الثورة وظنّت أنّ باستطاعته إنقاذها وأسرته.

لكنّ بيدرو كان ضابطا بسيطا، أنفق كلّ نقوده على تيريزا ونزواتها. كانت تعشق الحياة السريعة، في الحانات وساحات الرقص والفنادق الفاخرة. لم يستطع بيدرو أن يلبّي كلّ نزواتها. وأخيرا فتركته وحيدا

لأجل أميركيّ ثريّ. فقد بيدرو أثرها بعد فترة. حاول أن يقتضي أثرها لكنّها اختفت. لعلّها وصلت أميركا ووجدت حياة أخرى. ظلّ هذا السؤال يؤرّق بيدرو طيلة حياته!

\*\*\*

سحب بيدرو نفسه متثاقلا وصعد سلّم الدّرج نحو شقّته. كانت بينيلوبي جالسة أمام التّلفاز وكانت أليخاندار في المطبخ. نظر بيدرو إلى شاشة التّلفاز. كان يعرض برنامج مسابقات أميركيّ مشهور. بينيلوبي الشّقيّة استطاعت أن تمّد سلكا من شقّة جاره إيمانويل الذي كان يملك صحنًا لاستقبال قنوات فضائيّة. لا يهمّ. لم يعد بيدرو يعترض على ما تفعله ابنته. كانت حُبّ مشاهدة القنوات الأميركيّة حتّى لو لم تكن تعرف الإنجليزيّة. لم يعد بيدرو يكثرث. كان يعيش في عالم آخر وفي زمن آخر. توقّف الزمن ليلة دخول كاسترو هافانا. حتّى أيّام عمله لأكثر من أربعين عاما في وزارة الزراعة لم تعد تعني له شيئا.

كانت بينيلوبي في الخامسة عشر من عمرها. شابة لطيفة حنطيّة اللّون بارقة العينين تشبه أمّها. لم تكن تتكلّم كثيرا. كانت تعيش في عالم آخر. تتحدّث أحيانا عن موسيقى الرّاب وعن الأنترنت وعن الموضة. كلّما رآها تخرج في الصّباح بلباس المدرسة الأزرق يتذكّر طفولته البائسة. لم يكن هناك لباس موحد للمدرسة حين كان بيدرو صغيرا. وهو يذكر أنّه لم يكن صبيا لامعا في المدرسة البعيدة عن قريته. كان يحبّ حصّة الجغرافيا. العالم كان كبيرا وغامضا. محيطات شاسعة وقارّات بعيدة. كان يحلم أن يكون بحارا ليجوب العالم. ثمّ جاءت الثّورة!

"أنا تعب جدّا. أريد أن أنام"

"طيب. ادخل إلى غرفة النّوم. سأبلغ أمّي"

8

لم يكن بيدرو بطلا أبدا. انضمّ إلى الثّوار وهو صغير السنّ. أعطوه بزة وسلاحا وطلبوا منهم أن يقاتل حتّى الموت. أشهر مضت وبيدرو جاثم في جبال سييرا مايسترا. رأى جثثا ممّزة لرفاق قاتلوا على الجبهة. لكنّه لم ير أبدا أحدا من قادة الثّورة. كان يعلم أنّ فيديل هو القائد وسمع بتشي غيفارا لكنّه لم يره إلاّ مرّة يزور قرية ويدخّن سيجارا ويتحدّث بعاطفة كبيرة أمام الفلاحين. طلبوا منه أن يساعد في إعداد الطّعام. وفي المستشفى، وفي إعداد المون. كثير من الرّفاق ذهبوا إلى الجبهة ولم يعودوا إلاّ هو. ظنّ أنّه حسن الحظّ. لكن بعد فترة شعر بأنّه غريب عن كلّ هذا المشهد. طلب من مرؤوسيه أن يشارك في القتال.

"الرّفيق بيدرو جارسيا. ماذا تريد؟"

"أريد أن أحارب يا رفيق"

"مطلوب أنت في دفعة الطّبخ والإسناد"

"ولكن..."

" لكن مهامك في الإسناد وفي المشفى مهمة أيضا!"

"لكن"

هافانا:

في البدء لم تتغير المدينة كثيرا. في فندق الناسيونال كان بالإمكان مشاهدة عرض الكابريه الأمثل والجلوس إلى طاولة آل كابوني. في الخارج كان هناك أسطول من السيّارات الأميركية الفاخرة ينتظر ليأخذك إلى فندق خمسة نجوم. كل ذلك تغير. الدولة سيطرت على كل شيء. وأتمت كل شيء. لم يعد هناك من مكان تأخذك إليه السيّارات الفاخرة. هذه هي الدولة الشيوعية. صحيح أن التعليم مجاني والعناية الصحية متوفرة. لكنّ الفقر في كل مكان. هافانا امرأة جميلة باغتها الزمن. لا شيء يعمل هنا. المجاري تفيض في الشتاء والكهرباء تنقطع لساعات. الدولة تتحكم في كل شيء. يقولون إنّ هناك فسادا. لكنّه يسمع شائعات أن ابن فيديل يبحث عن عمل كغيره من الناس العاديين. لم يعد يعنيه كل ذلك. كل ما كان بيدريو يطمح إليه هو أن يذهب إلى مكان آمن ليحتسي الروم ويدخن سجائره.

بعد فترة بدأت تيريزا تتذمّر. لم يكن بيدرو يملك المال ليأخذها إلى مكان حافل كل ليلة. صار من الصعب عليه أن يحقق مطالبها. في ليلة ما دلفا إلى حانة كانت لا تزال تعمل بمعزل عن الحكومة. جلس بيدرو إلى طاولة وطلب شرابا. لكنّ تيريزا أصرت أن ترقص. كان هناك رجل أسمر يرتدي بدلة بيضاء وقبعة باناما اقترب من تيريزا وهمس في أذنها شيئا. بعد لحظات كانت تيريزا ترقص معه وبيدرو يتفرّج. كانت رقصة سالسا بوهيمية. اقترب الرجل منها ولامس جسدها. لم تمنع. بيدرو شعر بالحنج والحنق لكنّ تمنى أن يكون في موقع الرجل الغريب. بعد دقائق كانت تيريزا لقمه سائغة بيد الرجل. هنا في قلب هافانا رأى بيدرو تيريزا تذهب بعيدا.

"لا يوجد لكن أيها الرفيق القرار واضح. أنت مطلوب هناك! انتهى"

وهكذا قضى بيدرو أيامه في الثورة يطبخ ويرعى المصابين. كان يشعر أنّ الثورة كانت ستتمّ به وبدونه. لكنّ منظر تشي غيفارا في القرية الناعسة كان مؤثرا. وعندما كان يسأله الرفاق عن تشي كان يقول: صاحبتّه أثناء جوالي في الريف! لكنّه كان يعلم أنّ تشي لم يتوقّف حتى ليسلم عليه. ركب شاحنة عسكرية ومضى.

لم يطلق بيدرو رصاصة واحدة خلال وجوده في الثورة. وعندما دخل الثوار إلى هافانا شعر بيدرو أنّ مصيره كان بيده وأنه حرّ لأول مرّة في حياته.

\*\*\*\*

كانت هناك أيام لم يقدر بيدرو على مغادرة سريره. انهزم المطر لساعات وغرقت المدينة في الماء. جلست أليخاندرًا إلى جانب السرير وراحت تحت بيدرو على الاستيقاظ. أمّا بيدرو فكان يفكرّ بأيام مشمسة وبتيريزا وبشبابّ ببزة عسكرية يدخن السيجار ويأمر من حوله. عبثا حاولت أليخاندرًا إيقاظ بيدرو. لكنّ الرجل كان يفكرّ في أيام أخرى. كان شابّا. جميلا. قادرا وكان بإمكانه إصدار الأوامر.

\*\*\*

"حاضر حضرة العقيد."

"هناك عدّة زجاجات من الفودكا. افتح واحدة!"  
الفودكا. شراب بلون الماء لكنّه يختلف عن الرّوم. إنه يفتح عقلك!

أنا والعقيد ألكساندر شربنا الفودكا حتّى ثملنا ليالي عديدة.  
"نحن هنا يا بيدرو لنساعدكم. نحن أقصد الأتحاد السّوفياتي. نحن هنا  
لنتأكّد أنّكم لن حتّاجوا أحدا أبدا يا بيدرو."

حدّث لكساندر بعفويّة عن سانت بيترسبورغ. أوّل مدينة أوروبية  
يتخيّلها بيدرو بشوارعها وقنواتها وقصورها وأسواقها. وحدّثه بيدرو عن  
قريته "سانت كريستوبال" حيث لا شيء أبدا.

"هناك سكة حديد وقطار يمرّ مرّة في اليوم في طريقه إلى هافانا!"

"يجب أن تأخذني إلى قريتك يا بيدرو. إنها تبدو رائعة! اشرب!"

كان بيدرو يشرب الفودكا مع العقيد ألكساندر لكنّه كان يشعر بأنّ  
الرّجل غريب عنه. لا يمكن أن يكون صديقا. لا يوجد شيء في "سانت  
كريستوبال" ليريه للعقيد.

لكنّه كان يحلم أن يسافر معه إلى سانت بيترسبورغ. الحياة هناك  
ستكون مختلفة. نساء ورجال مختلفون. لا يوجد أزقة قذرة هناك ولا  
مياه آسنة أو بيوت مكتظة بسكّانها. لفترة ما كان بيدرو يحلم أن يكون  
مواطننا في الأتحاد السّوفياتي.

\*\*\*

الرّوس:

أتى الرّوس وجاءوا بكلّ شيء جميل. حدّث ألفونسو عن رفقته للرّوس  
ولكنّ بيدرو احتفظ بتلك الذّكريات لنفسه. كان زما جميلا. جاؤوا  
بالعشرات ثمّ المئات. ضباط بيض اللّون شقر الشّعر شعروا بالغربة في  
كوبا وتذمّروا من النّاموس والحرا!

الرّقيب بيدرو كلّف بمرافقة الملازم ألكساندر وآخرين لتقديم تقرير  
عن وضع الرّيف الكوبيّ جنوب وغرب هافانا. هؤلاء كانوا حلفاؤنا! كانوا  
يتحدّثون عن مكننة الزّراعة وشقّ التّرع ومدّ سكك الحديد. شعر بيدرو بأنّ  
الثّورة وجدت حليفا قويّا. ألكساندر كان رجلا ضخّم الجثّة، ويعاني من الأرق  
المزمن.

"أتدري يا بيدرو لقد حاربت في برلين عندما كنت شابّا!"

"نعم يا حضرة العقيد."

"أتدري يا بيدرو أنا من سانت بيتر سبورغ!"

"نعم حضرة العقيد."

"افتح تلك الحقيبة يا بيدرو."

"أتدري يا ألفونسو؟"

كان ألفونسو يداعب قطة دلفت إلى الحانة.

"كان حلمي أن أزور سانت بيترسبورغ"

"في روسيا؟ ههه أيها الرفيق ولماذا؟"

"لأن شوارعها نظيفة ونساءها من علية القوم."

"هذه أفكار بورجوازية. عليك أن تتخلى عنها يا رفيق"

"أتدري يا ألفونسو؟"

"ماذا؟"

"أحيانا أشعر أننا نعيش أكذوبة!"

"إن عليك بقليل من الروم أيها الرفيق"

تتراقص أشعة الشمس وهي تخترق الساحة الداخلية للفيلا القديمة.

يجلس بيدرو على عتبة المنزل يدخن وينظر إلى المارة كما فعل يوم زار

القرية مرة واحدة بعد الثورة. كان أبوه قد مات. أمّا والدته فقد كانت

مقعّدة. جلس بجانبها لساعة ولم تنبس بشفة. هو لم يقل شيئا أيضا.

أمّا ماريّا، أخته فكانت كماهي دوما قمة في العطاء.

"أبوك مات العام الفائت"

"صحيح. أعتذر عن غيابي"

"أمك مريضة جدًا"

"أدرك ذلك. أنا في الحكومة الثورية الآن. لا وقت لديّ."

"أنا لم أتزوج. كنت مشغولة"

"لا بدّ أن تتزوجي ماريّا. أنت بعد صغيرة"

"أحسب أنّ ذلك سيكون صعبا"

"ربّما. سأرحل الآن."

"هل ستعود؟"

"لا أظنّ ماريّا"

قبل أن يرحل جلس بيدرو في الكرسيّ الذي كان أبوه يجلس فيه

لسنوات. في الشرفة أمام الحديقة الصغيرة. تخيل والده الضرب وهو

يجلس لساعات بانتظار شيء ما. في المنزل المقابل يعود صاحبه على عربة

حصان. يقضي دقائق وهو يقود الحصان والعربة إلى الحوش. يمرّ الوقت ثقيلًا

على بيدرو. لا أصوات في الخارج وهناك رائحة طعام تنبعث من المنزل المجاور.

فتيات يمررن من أمام بيته يتضحكن. السماء مكفهرة وقد يهطل المطر.

في كلّ يوم كان أبوه يجلس هنا لساعات ينتظر الموت. لكن لن تكون حياة

بيدرو مشابهة. لن يعيش منتظرا الموت أبدا. كانت هافانا تنتظره. كان

الرحيل الملاذ الوحيد. سيبحث عن ملاذ آخر. عالم كبير ينتظره.

وهكذا رحل بيدرو عن القرية للمرة الثانية ولم يعد أبدا.

هافانا

”أنت تتخيّل يا بيدرو. لا رائحة هنا إلاّ العطن“

”لا. لا يا ألفونسو، أكاد أشمّها بين روائح السّيجار والدّخان وعطن

المكان“

”بيدرو أنت كهل وتعب والأفضل أن تنام“

”قل لي يا ألفونسو هل كان كلّ ذلك يستحقّ ما فعلناه؟“

”ماذا تقصد؟“

”أقصد الثّورة وهافانا وكلّ ما حدث؟“

”ههه يا رفيق بيدرو أنت لا تعرف ما تتفوّه به؟“

”لا صراحة يا ألفونسو. هل هذه هافانا السيّدة الجميلة؟“

”ههه اصمت يا بيدرو. هافانا كانت سيّئة السمعة وستظلّ!“

”هل تخرج من بين الأزقة يا ألفونسو أبدا؟“

”ليس مؤخّرا. أقصد ليس منذ سنوات“

## 10

كانت ماريا فتاة جميلة بشعر بنّيّ وعينين عسليّتين وقوام رشيق. لم تكن تملك أحلام بيدرو بالهجرة وترك القرية. كانت فتاة مثابرة ووفيّة لوالديها. وقعت في الحبّ عدّة مرّات لكنّها لم تسمح لأحد باستغلالها. كانت تحمي نفسها وتنتظر بطلا يأتي ليخلصها من حياة رتيبة. لم تغفر لبيدرو أبداً أنّه هاجر وترك والديه. حمّلت مسؤوليّتها كابنة وحيدة واعتنت بوالدها الضّريب حتى توفي. ثمّ ظلّت إلى جانب أمّها المقعدة بانتظار أن يأتيها الفرج. لكنّ القرية كانت تموت ببطء. هاجر الشّباب إلى هافانا بعد الثّورة وظلّت ماريا لوحدها. بلغت الثلاثين من العمر ولم يتقدّم أحد لخطبتها. ستينات القرن الماضي كانت الأصعب على ماريا. فتاة مراهقة تنتظر عريسا وحياة عاديّة. لم تكن ترغب بأكثر من ذلك.

ظلّت ماريا حلم بنهاية سعيدة. لم تكن حلم بحياة خارج القرية. ربّما لم تملك الطّموح الذي دفع بيدرو إلى الهجرة. لم تتزوّج ماريا رغم جمالها وفي النّهاية عاشت وحيدة في بيت منزو. وبعد بضع سنوات كان يتاح لها أن تزور أخيها في هافانا بضع ليال. ماريا عاشت تراجيديا الوحدة والعزلة ولم تستحقّ ذلك أبدا. هكذا كان يفكّر بيدرو.

\*\*\*

”هناك في المساء رائحة جميلة تتسلّل من بين البيوت، هي رائحة

"أين ذهبت؟"

"إلى فندق ناسيونال مرّة. كنت أرافق ضابطا روسيّا وشاهدنا عرضا هناك"

"آه النَّاسيونال. ذكّرتني بأيّام خلت"

"وفي مرّة أخرى ذهبنا إلى فندق " لا رينا" واحتسينا الرّوم في الحديقة"

"أذكره أيضا. ذهبت هناك وإلى فندق بارك أيضا"

"النّساء كنّ جميلات هناك"

"وأكلت لوبستر وشربت الشّمبانيا أيضا؟"

"ههه نعم يا بيدرو. ثمّ تسكّعت على الكورنيش ولطمني رذاذ البحر حتّى استفتقت!"

\*\*\*

يمشي بيدرو متثاقلا في أزقة هافانا القديمة نحو بيته. لا يعاني كثيرا. لكنّه يتذكّر أنّه كان يركض في هذه الأزقة قبل بضعة عقود. تنتظره بينيلوبي أمام البيت الذي يتشارك به مع تسع عائلات. يرخي ذراعه على كتف ابنته ويقول:

"قبل سنوات كنت عظيم هذا الحيّ"

"أبي ولم تنزل كذلك"

"لا لقد تعبت!"

ذهب الرّوس وتغيّرت الحياة في هافانا. كان على الرّقيب بيدرو أن يتأقلم مع الوضع الجديد. لم يعد هناك من يحدثه عن "سانت بيترسبورغ" وعن الاتّحاد السّوفياتيّ العظيم. ابن ألفونسو هرب إلى فلوريدا. وهناك آلاف هربوا أيضا. الأميركيّون يجوبون شوارع هافانا يصوّرّون المباني ويقضون ساعات في الحانات. أمّا بيدرو فلا يغادر منزله إلّا نحو الحانة. يقولون إنّ هناك ساحات تمّ ترميمها وأنّها عادت لعصرها الجميل قبل الثّورة. بيدرو لا يقدر على الحركة ثمّانّه يكره السّيّاح.

سيظلّ بيدرو يذكر هافانا عشية الثّورة: تلك الشّوارع التي مشى خلالها كشابّ مليء بالعنفوان. وسيتذكّر تيريزا لأنّها كانت هديّة الثّورة إليه.



"أَنَّ الْعَالَمَ صَغِيرٌ جَدًّا. أَنَّهُ مَتْنَاهُ فِي الصَّغْرِ"

"كَيْفَ ذَلِكَ؟"

"هَهُهُ إِنَّهُ الْمَسَافَةُ بَيْنَ عَتَبَةِ مَنْزَلِي وَحَانَتِكَ الْقَذْرَةَ!"

يَبْتَسِمُ الْفُونَسُو وَيَصْمَتُ.

"وَهَلْ تَعْلَمُ يَا الْفُونَسُو مَا هُوَ أَسْوَأُ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؟"

"بِالنَّسْبَةِ لِي هُوَ عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْتِصَابِ... هَهُهُ"

"لَا يَا الْفُونَسُو هُوَ الْإِنْتِظَارُ عِبْثًا!"

"رَبِّمَا"

"أَنْ تَكُونَ ضَرِيرًا وَأَنْ تَرَى بِعَيْنَيْكَ. وَأَنْ تَكُونَ أَصْمًا وَأَنْ تَسْمَعَ بِأُذُنَيْكَ"

سَكَتَ الْفُونَسُو وَارْتَشَفَ قَلِيلًا مِنَ الرَّوْمِ.

بَعْدَ دَقَائِقٍ مِنَ الصَّمْتِ قَالَ بِيدْرُو:

"الْفُونَسُو فَنَجَانُ قَهْوَةٍ يَا رَفِيقَ أَرْجُوكَ"

"حَقًّا؟ قَهْوَةٌ؟ أَوْكِي! أَنْتَظِرُ لِحِظَةٍ"

\*\*

السَّائِحُ الْأَمِيرَكِيُّ يَمْسَحُ عِرْقَهُ وَيَرْضَعُ يَشْرَبُ مِنْ قَنْيْنَةٍ مَاءً. إِنَّهُ يَجُولُ  
أَرْقَةً هَافَانًا وَيَصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ. يَنْظُرُ إِلَى فَيْلٍ قَدِيمَةٍ وَيَأْمُرُ صَاحِبَ الْعَرَبَةِ الَّتِي  
يَجْرُهَا حِصَانٌ مَتَعِبٌ أَنْ يَتَوَقَّفَ.

"رَائِعٌ. إِنَّهُ مِثَالٌ عَلَى مَعْمَارِ إِسْبَانِيٍّ قَدِيمٍ. كُولُونَايِلُ!"

يَنْظُرُ بِيدْرُو إِلَى السَّائِحِ الْأَمِيرَكِيِّ بغيرِ اكْتِرَاثٍ.

"فَضْلًا" يَقُولُ بِإِسْبَانِيَّةٍ رَكِيكَةٍ: هَلْ تَعْرِفُ أَيْنَ الْحَانَةِ الَّتِي كَانَ يَجْلِسُ

هَافَانَا!

مَدِينَةُ حَفَرَ الزَّمَنِ أَظْفَارُهُ فِي وَجْهِهَا. كَمَا حَفَرَ أَظْفَارُهُ فِي وَجْهِ بِيدْرُو.

تِيرِيْزَا كَانَتْ سَيِّدَةَ الْمَدِينَةِ ثُمَّ رَحَلَتْ. بِيدْرُو يَقُومُ مِنْ سَرِيرِهِ وَيَنْظُرُ إِلَى  
أَلِيْخَانْدَرَا عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ. لَيْسَتْ أَجْمَلُ النِّسَاءِ لَكِنَّهَا أَحْتَمَلْتَهُ لِأَكْثَرِ مِنْ  
أَرْبَعَةِ عَقُودٍ. يَكْرَهُ طَبْخَهَا. يَحْمَلُ جَسَدَهُ وَيَنْزِلُ الدَّرَجَ الطَّوِيلَ نَحْوَ الطَّابِقِ  
الْأَرْضِيِّ. يَجْلِسُ عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْمَارَّةِ.

"كُنْتُ فِي الثَّوْرَةِ يَوْمًا مَا" يَقُولُ لِنَفْسِهِ.

"اسْتَمَعْتُ لِكَاسْتَرُو فِي سَاحَةِ الثَّوْرَةِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ"

"عَمِلْتُ فِي الْحُكُومَةِ لِعَقْدَيْنِ مِنَ الزَّمَنِ"

"الْيَوْمَ أَجْلِسُ هُنَا وَأَنْتَظِرُ شَيْئًا مَا!"

بَعْدَ الظُّهْرِ يَحْمَلُ بِيدْرُو نَفْسَهُ وَيَمْشِي مَتَنَاقِلًا نَحْوَ الْحَانَةِ.

"كَانَتْ هُنَاكَ أَيَّامٌ عَشْنَا فِيهَا أَحْلَامُ الثَّوْرَةِ"

"حَقًّا يَا الْفُونَسُو؟ لَا أُدْرِي. أَنَا تَعَبٌ جَدًّا وَلَيْسَ لَدِيَّ أَحْلَامَ أَبَدًا"

"كُلَّ وَعُودِ الثَّوْرَةِ حَقَّقْتُ يَا رَجُلَ"

"رَبِّمَا لَكِنْ يَا الْفُونَسُو أَشْتَهِي الطَّمَاظِمَ أَحْيَانًا، بِالْكَادِ أَتَذَكَّرُ طَعْمَهَا"

"هَهُهُ يَا رَجُلَ... يَا رَفِيقَ الصَّبَا. أَنْتَ ابْنُ فَلَاحٍ حَقًّا"

"أَتَدْرِي يَا الْفُونَسُو مَاذَا اِكْتَشَفْتَ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ السَّنِينَ؟"

"لَا يَا بِيدْرُو مَاذَا اِكْتَشَفْتَ؟"

فيها هيمنغواي؟“

”من؟“

”همنغواي الرّوائّي؟“

”لا!“

يقترّب الأميركيّ من بيدرو مصوّبا كاميرته نحوه.

”ممكن؟“ يسأل الأميركيّ.

”ممكن“ يجيب بيدرو

يصوّر السّائح الأميركيّ ثمّ يتحرّك.

بيدرو تذكّر كلّ ذلك وارتخى.

الثّورة لم تنتصر. يقول لنفسه. الأميركيّ البغيض ما زال هنا.

\*\*\*